الحديث السابع عشر

إنما الناس كالإبل المئة لا تكاد تجد فيها راحلة

عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّما النَّاس كالإبل المِئَة لا تكاد تجدُ فيها راحلةً». رواه البُخاريُّ.

ورواه مسلمٌ بلفظ: «تجدون النَّاس كإبلٍ مئةٍ لا يجد الرَّجلُ فيها راحلةً»[1].

وهو آخر حديث في كتاب فضائل الصَّحابة.

ورواه التِّرمذيُّ بلفظ: «إنَّما النَّاسُ كإبلٍ مئةٍ لا يجد الرَّجلُ فيها راحلةً». وفي روايةٍ: «أو قال: لا تجد فيها إلا راحلةً».

ورواه ابن ماجه بلفظ: «النَّاس كإبلٍ مئةٍ لا تكاد تجد فيها راحلةً». ورواه ابن حبَّان.

ورواه أحمد في مواضعَ عدَّةٍ[2].

الإبل: قال الخطَّابيُّ: العرب تقول لِلْمِئَةِ من الإبل: إبل. يقولون: لفلانٍ إبلٌ، أي مئة بعيرٍ، ولفلانٍ إبلان، أي: مئتا بعيرٍ. فعلى هذا: يكون قوله: «النَّاس كإبلٍ مئةٍ» يكون قوله: (مئة) تفسيراً لقوله (إبل)؛ لأنَّ مجرّد لفظ (إبل)

---

(١) البخاريُّ برقم ٦٤٩٨، ومسلمٌ برقم ٢٥٤٧، وانظر الفتح ١١/ ٣٣٣، وشرح النَّوويِّ ١٦/ ١٠١.

(٢) التِّرمذيُّ برقم ٢٨٧٦، وابن ماجه برقم ٣٩٩٠، وأحمد ٢/ ٧ و٤٤، وابن حبَّان (الإحسان ١٣/ برقم ٥٧٩٧ و١٤/ ٦١٧٢).

ليس مشهور الاستعمال في المئة ، ومن هنا ذكر ﷺ كلمة (مئة) تفسيراً وتوضيحاً.

أمَّا الرِّواية «النَّاس كالإبل المئة» فقوله (المئة) للتأكيد.

والرَّاحلة عند العرب هي النَّجيبة المختارة من الإبل للرُّكوب. وتستعمل للذَّكر النجيب ، والأنثىٰ النَّجيبة من الإبل ، والهاء في (الرَّاحلة) للمبالغة.

والمعنى: لا تجد في مئةٍ من الإبل راحلةً تصلح للرُّكوب؛ لأنَّ الَّذي يصلُح للرُّكوب ينبغي أن يكون وطيئاً ، سهل الانقياد ، سريعاً ، كثير الاحتمال. وكذا لا تجد في مئةٍ من الناس مَنْ يصلح للصُّحبة بأن يعاون رفيقه ، ويُلين جانبه ، ويدافع عنه.

قال ابن حجر: [والرِّواية بإثبات (لا تكاد) أولىٰ؛ لما فيها من زيادة المعنى ، ومطابقة الواقع ، وإن كان معنى الأوَّل يرجع إلى ذلك ، ويُحمل النَّفي المُطلق على المبالغة ، وعلى أنَّ النَّادر لا حكم له].

إنَّ أكثر الناس أهل نقصٍ ، وأمَّا أهل الفضل ؛ فعددهم قليلٌ جدّاً ، فهم بمنزلة الرَّاحلة في الإبل ، وهذا المعنى نجده في كتاب الله عزَّ وجلَّ في مواضع كثيرةٍ جدَّاً ، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣] ومنه قوله سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] و[يوسف: ٢١] ومنه قوله سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧] ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [صٓ: ٢٤] ومن ذلك قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]. وقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣] وقوله: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧] وقوله سبحانه في قصَّة نوح عليه السَّلام: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]. وقوله عزّ وجلّ: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩] وقوله: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

وجاء في حديث عبد الله بن مسعودٍ ، قال: قال ﷺ: «. . . وما أنتم في

أهل الشِّرك إلا كالشَّعرة البيضاء في جلد الثَّور الأسود ، أو كالشَّعرة السَّوداء في جلد الثَّور الأحمر». رواه البخاريُّ[1].

وجاء في حديث أبي سعيدٍ قال: قال ﷺ: «إنَّ مثلكم في الأمم كمثل الشَّعرة البيضاء في جلد الثَّور الأسود ، أو كالرَّقْمَةِ في ذراع الحمار». رواه البُخاريُّ[2].

والرَّقمة: واحدة الرَّقمتين ، وهما لحمتان تليان باطن ذراعي الفرس لا شعر عليهما ، أو هَنتان شبه ظفرين في قوائم الدَّابة[3].

يقرِّر الحديث حقيقةً ملموسةً في عالم الإنسان في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ، وهي أنَّ المرء الَّذي تُرضى أحواله ، وتَقتربُ من الكمال أوصافُه قليلٌ جداً.

وَمَنْ ذَا الَّذِي تُرْضَىٰ سَجَايَاهُ كُلُّهَا كَفَىٰ المَرْءَ نُبْلاً أنْ تُعَدَّ مَعَايِبُهْ

وقال ابن الرُّومي:

أَعَيَّرْتَنِي بالنَّقص ، والنَّقْصُ شَامِلٌ وَمَنْ ذَا الَّذِي يُعْطَىٰ الكَمَالَ فَيَكْمُلُ[4]

وكذلك فإنَّ الرَّجل الجواد ؛ الَّذي يحمل أثقال النَّاس ، ويتحمَّل الحَمَالاتِ عنهم ، ويُساعد في كشف كُرَبِهِمْ ، ويُغيث الملهوف منهم عزيزُ الوجود ، كالرَّاحلة في الإبل الكثيرة.

إنَّ النَّاس كثيرٌ ، ولكنَّ المرضيَّ الأحوال منهم قليلٌ ، ونسبة وجوده واحدٌ في المئة ، وهذه النِّسبة احتماليَّةٌ ليست متعيِّنةً ، ولا متحقَّقةً دائماً ، وكذلك فإنَّ الإنسان الَّذي أوتي نصيباً من الحسن الخَلْقي قليلٌ سواءٌ كان ذكراً ، أو أنثى.

والمؤمنون في النَّاس قليلٌ بالنسبة إلى الكفّار ، والمؤمنون طبقاتٌ ،

---

(١) البخاريُّ برقم ٦٥٢٨ ، وانظر الفتح ١١/ ٣٧٨.
(٢) البخاريُّ برقم ٦٥٣٠.
(٣) القاموس المحيط.
(٤) أدب الدُّنيا والدِّين ١١٦.

ودرجاتٌ ، والصَّادق في إيمانه ، الملتزم بمقتضيات هذا الإيمان ، الزَّاهد في الدُّنيا ، الرَّاغب فيما عند الله قليلٌ كقلَّة الرَّاحلة في الإبل ، وقد طرق الشُّعراء هذا المعنى ، فقال السَّموءَل :

تُعَيِّرُنَا أَنَّا قَلِيْلٌ عَدِيْدُنَا ... فَقُلْتُ لَهَا إنَّ الكِرَام قَلِيْلُ
وَمَا ضَرَّنَا أَنَّا قَلِيْلٌ وَجَارُنَا ... عَزِيْزٌ وَجَارُ الأَكْثَرِيْنَ ذَلِيْلُ[1]

وقال البحتريُّ :

وَلَمْ أَرَ أَمْثَالَ الرِّجَالَ تَفَاوَتَتْ ... إِلَىٰ المَجْدِ حَتَّى عُدَّ أَلْفٌ بِوَاحِدِ[2]

وقال دِعْبِل :

مَا أَكْثَرَ النَّاسَ لاَ بَلْ مَا أَقَلَّهُمُ ... اللهُ يَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَقُلْ فَنَدَا
إِنِّي لأَفْتَحُ عَيْنِي حِيْنَ أَفْتَحُهَا ... عَلَىٰ كَثِيْرٍ ، وَلَكِنْ لاَ أَرَىٰ أَحَدا[3]

وقيل :

تَمَسَّكْ إِنْ ظَفِرْتَ بِوُدِّ حُرٍّ ... فَإِنَّ الحُرَّ فِي الدُّنْيَا قَلِيْلُ[4]

إنَّ أكثر الناس يسعون في تحقيق مصالحهم ، فإذا رُغِّبوا ، وأُغروا بما يحسَبون : أنَّه نافعٌ لهم ؛ انطلقوا في الإقدام عليه ، متجاهلين القِيَمَ الأخلاقيَّة ، والمُثل العُليا الكريمة .

وكذلك إذا خُوِّفوا بضياع المنافع ، أو بالتَّعرُّض إلى المكروه ؛ خافوا ، ولم يفعلوا إلا ما تُمليه عليهم مصالحُهم . . . هكذا أكثرُ النَّاس . . . ويبقى القليل من النَّاس ممَّن لا يثنيه عن عزمه على الخير ترغيبٌ ، ولا ترهيبٌ . وما أجمل أبيات علي بن الجهم لأخيه :

تَوَقَّ النَّاسَ يَا بْنَ أَبِي وَأُمِّي ... فَهُمْ تَبَعُ المَخَافَةِ وَالرَّجَاءِ
وَلاَ يَغْرُرْكَ مِنْ وَغْدٍ إِخَاءٌ ... لأَمْرٍ مَا غَدَا حَسَنَ الإِخَاءِ

---

(١) الحماسة لأبي تمام ١/ ٢٨ .
(٢) نهاية الأرب ٣/ ٩٨ .
(٣) ديوان دعبل ٩٧ .
(٤) المنتظم لابن الجوزيِّ ٩/ ٨ ووفيات الأعيان ١/ ١٠ .

أَلَمْ تَرَ مُظْهِرِينَ عَلَيَّ عَيْبَاً ... وَهُمْ بِالأَمْسِ إِخْوَانُ الصَّفَاءِ
فَلَمَّا أَنْ بُلِيْتُ غَدَوا وَرَاحُوا ... عَلَيَّ أَشَدَّ أَسْبَابِ البَلاَءِ
أَبَتْ أَخْطَارُهُم أَنْ يَنْصُرونِي ... بِمَالٍ أَوْ بجاهٍ أَوْ ثَرَاءِ
وَخَافُوا أَنْ يُقَالُ لَهُمْ: خَذَلْتُمْ ... صَدِيقَاً ، فَادَّعَوا قِدَمَ الجَفَاءِ[1]

النَّاس كإبل مئةٍ لا تكاد تجدُ فيها راحلةً. . . إذا سلمنا بصحَّة التَّشبيه الوارد في هذا الحديث ، فهذا يقتضي منا أن نحذر كثيراً من النَّاس ، وألا ننخدع بمظاهرهم ، وألا نشهد لأحدٍ شهادة تزكيةٍ. . . إلا بعد تجربةٍ ، وتوثيقٍ ، وتمحيصٍ ، وعلينا أن نربِّي أنفسنا ، ونتعهَّدها ، عسىٰ أن نكون من هذا القليل.

الأصدقاء كثيرٌ ، ولكنَّ الأوفياء قليلٌ ، فلا يتورَّط المرءُ بإعطاء ماله ، أو إفشاء سرِّه لمن يظنُّ أنَّه جيِّدٌ قبل أن يتأكَّد ، فقد يكون في ذلك إحراجٌ له ، أو إفلاسٌ ، أو هلاكٌ ، إنَّ الَّذي يتَّقي الله حقَّ التَّقوىٰ هو الَّذي يمكن أن تطمئنَّ له ، وهو الَّذي تجده يحفظ غيبتك ؛ إذا غبت ، وينصحك ؛ إذا استنصحت ، وينجدك ؛ إذا استنجدت ، ويعينك في الأزمات ؛ إذا طلبت منه المعونة ، ويدلُّك على الله بقوله ، وفعله. وهذا في الدُّنيا قليل.

إنَّ معرفة هذه الحقيقة الواقعة تحمينا من الصَّدمة الَّتي ستواجهنا إن لم نكن مدركين لهذه الحقيقة. وهذه المعرفة تجعل الخسارة محدودةً ، إذ إن الإنسان لا بدَّ له من أن يتعاون مع الآخرين في شؤون حياته ، ولا بدَّ له من أن يثق بمن يتعاون معه ، ولكنَّ معرفته بالحقيقة التي قرَّرها الحديث تجعله لا يغالي في الثِّقة ، ولا يتورَّط بإعطاء المال.

الصُّورة البيانيَّة[2] الجميلة الموجودة في الحديث قائمةٌ على التَّشبيه ، وهي منتزعةٌ من حياة المخاطبين الَّذين كانوا يعتمدون على الإبل اعتماداً كلِّيَّاً في حياتهم. فالبعير هو الحيوان الَّذي يناسب العربيَّ في ضربه في الأرض ، يقطع

---

(١) مختار الأغاني لابن منظور ٧/ ١٥٥ ـ ١٥٦.
(٢) انظر أسرار البلاغة للجرجاني ٩١ و٢١٣.

على ظهره الفيافي ، ويحمل عليه أثقاله إلى بلدٍ لم يكن ليبلغَه إلا بشقِّ الأنفس. وفي حالة استقراره يشرب مِنْ لبنه ، ويأكل مِنْ لحمه ، ويلبس مِنْ وَبَرِه. وإنَّنا لنجد في الشِّعر الجاهليِّ صدى هذه العلاقة بين العربيِّ ، والنَّاقة[1] . . . فلا تكاد تجد راحلةً في مئةٍ من الإبل ، والحديث كلُّه يقوم على هذه الصُّورة الَّتي توضِّح قلَّة النَّاس الصَّالحين.

والصُّورة البيانيَّة من أهم العناصر التي تحقق الجمال في النص من الناحية البلاغية ، والتي توفر الوضوح في المعنىٰ ، وتعين على إدراكه وتمثُّله أعظم العون.

إنَّ الرَّجل الصَّالح الفاضل ؛ الَّذي يُنجِد من استنجد به ، ويدفع عن صديقه المخاطر ، ويحمل عنه أعباء الحياة قليلٌ ، وكذلك النَّاقة ؛ الَّتي تُسعف راكبها من الانقطاع في الطَّريق ، وتحمل طعامه ، وشرابه ، ومتاعه ، وتبلغ به البلد المقصود.

والنَّاقة بفطرتها مطواعةٌ ، فإذا جمعت إلى ذلك كونها راحلةً نجيبةً ، كانت شيئاً نفيساً عند العربيّ ، ولا بُدَّ للمرء من صديقٍ يعين على نوائب الدَّهر ، كما أنَّه لا بدَّ للعربيِّ في حياته البدويَّة ؛ الَّتي تقوم على انتجاع الكلأ ، والارتحال من النَّاقة الَّتي تسعفه.

والحياة إذا عريت عن الصَّديق المؤنس ، والرَّفيق المُعين تصبح جحيماً لا يُطاق.

قال حسَّان بن ثابتٍ:

أَخِـلَّاءُ الـرَّخـاءِ هُـمُ كَثِيْـرٌ ... وَلَكِـنْ فِـي البَـلَاءِ هُـمُ قَلِيْـلُ
فَـلَا يَغْـرُرْكَ خِلَّـةُ مَـنْ تُـؤَاخِـي ... فَمَـا لَـكَ عِنْـدَ نَـائِبَـةٍ خَلِيْـلُ
وَكُـلُّ أَخٍ يَقُـولُ أَنَـا وَفِـيٌّ ... وَلَكِـنْ لَيْـسَ يَفْعَـلُ مَـا يَقُـولُ
سِـوَىٰ خِـلٍّ لَـهُ حَسَـبٌ وَدِيْـنٌ ... فَـذَاكَ لِمَـا يَقُـوْلُ هُـوَ الفَعُـولُ[2]

(١) انظر كتابي: فنُّ الوصف في مدرسة عبيد الشِّعر.
(٢) ديوان حسان ٣٩٣.

والإنسان مدنيٌّ بطبعه ، لا بدَّ له من صديقٍ ، وَمَنْ وُفِّق إلى رجلٍ يشبه الرَّاحلة فذلك هو السَّعيد. قال الإمام الماورديُّ:

[اعلم: أنَّ الله تعالى لِنافذ قُدرته ، وبالغ حكمته خَلَقَ الخلق بتدبيره ، وفَطَرهم بتقديره ، فكان من لطيف ما دبَّر ، وبديع ما قدَّر أنْ خلقهم محتاجين ، وفطرهم عاجزين ، ليكون بالغنى منفرداً ، وبالقُدرة مختصَّاً ، حتَّى يشعرنا بقدرته : أنَّه خالق ، ويعلِّمنا بغناه : أنَّه رازق ، فنذعن بطاعته رغبةً ، ورهبةً ، ونقرُّ بنقصنا عجزاً ، وحاجةً.

ثمَّ جعل الإنسان أكثر حاجةً من جميع الحيوان ؛ لأنَّ من الحيوان ما يستقلُّ بنفسه عن جنسه ، والإنسان مطبوعٌ على الافتقار إلى جنسه ، واستعانتُه صفةٌ لازمةٌ لطبعه ، وخلقةٌ قائمةٌ في جوهره ، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٢٨]. يعني: عن الصَّبر عمَّا هو إليه مفتقر ، واحتمال ما هو عنه عاجزٌ][1].

وقال[2]: [لأنَّ الإنسان مقصودٌ بالأذيَّة ، محسودٌ بالنِّعمة ، فإذا لم يكن آلفاً مألوفاً ؛ تخطَّفته أيدي حاسديه ، وتحكَّمت فيه أهواء أعاديه ، فلم تسلم له نعمةٌ ، ولم تَصْفُ له مدَّةٌ ، فإذا كان آلفاً مألوفاً ؛ انتصر بالأُلفة على أعاديه ، وامتنع مِنْ حاسديه].

فإذا كان ذلك كذلك ؛ فليذكر المرءُ هذه الحقيقةَ ؛ الَّتي عبَّر عنها الرَّسول ﷺ بأسلوب القَصْر: إنَّما النَّاس كالإبل المئة لا تكاد تجد فيها راحلةً.

إنَّ تقرير هذه الحقيقة ليدفع الأمَّة الإسلاميَّة إلى تأهيل عددٍ من الرِّجال المقتدرين على القيام بمصالح الأمَّة الكبرى كلِّها ، ليتولوا قيادتها في ميادين العلم ، والاقتصاد ، والصِّناعة ، والمهارات ، وذلك بأن تستكمل فيهم أوصاف الكمال ، والتَّفوق ، وقد قيل: العلم بالتَّعلُّم ، والحلم بالتَّحلُّم.

إنَّ أصحاب الموهبة موجودون ، وهم قليلٌ ، فيجب على الأمَّة أن تفيد من

---

(١) أدب الدُّنيا والدِّين ١١٦.

(٢) أدب الدُّنيا والدِّين ١٣٢ ـ ١٣٣.

استعدادهم ، وموهبتهم ، وأن تتعهَّدهم ، وترعاهم ، وتعدَّهم لقيادة الأمَّة ، وأن توفِّر لهم كلَّ ما وصل إليه العقل البشريُّ ، والتَّجربة البشريَّة من وسائل ، وأفكار وما إلى ذلك .

إنَّنا نحتاج إلى مسلمين صالحين مقتدرين أصحاب موهبةٍ ، وكفاءةٍ ، وإبداعٍ في الصَّحافة ، والتَّأليف ، والاقتصاد ، والتَّعليم ، والصِّناعة ، والفنون العسكريَّة ، والإعلام والزَّعامة السِّياسيَّة ، والفكريَّة وغيرها. قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٢].

* * *